

اللباس في المفهوم الغربي

جعفر حمزة المالكي - البحرين

اللباس وموقعه في الحركة الفكرية

اللباس هو اللغة الصامتة المتحركة التي تملك على مدى حركة الإنسان عبر التاريخ تمازجاً موحداً مع الإنسان في جسمه، لتكون لغة تتبلور إثر التفاعل لمكونات عدة، منها تفكير الفرد، وثقافة المجتمع، والمؤثرات القهرية خارج محيط الفرد والمجتمع، فاللباس لغة الرمز في ذهن الإنساني، وهذه تأخذ اتجاهات تختلط فيها الصور وتتداخل معالمها لتصبح وسيلة لتأثيرات اجتماعية شتى. يقول أحد الكتاب الغربيين: "كل شيء يحدث في العالم يسهم بتشكيل الزبي ويؤثر في تغطية أجسادنا".

وتتحرك الخطابات الغربية المتعددة لتؤثر في سلوك الفرد عبر مخاطبة قناعاته التي تتشكل إثر قوة تلك الخطابات، وبطبيعة الحال فإن تلك الخطابات تهدف من خلال توجيهها إلى تكوين عقلية تتحرك عبر خطوط ترسمها وتجهد على أن يتحرك الآخرون عليها؟ لما تدره من أرباح سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي، وهي تملك قوة التأثير ما يعيد صياغة القناعات والدلالات الفكرية وحتى العقائدية للفرد، ومن تلك الخطابات المهمة وأشدها أثراً في تكوين قناعات الفرد والمجتمع، هو الخطاب الإعلامي. ويأخذ اللباس دوره المتميز في حركة التوجيه الإعلامي ليعطي زخماً مدروساً للمشاهد، لما يمثله ذلك التوجيه من أنموذج ضخم لأحداثه في التقدم التأسيري، يعكس بنسبة كبيرة الواقع الشكلي والمضموني للمجتمع الغربي. وعوداً على بدء، هل يمثل اللباس عند الغرب دلالة نستطيع من خلالها تبيان بعض الأمور؟

وهل بالإمكان أن نستشف ما يؤمن به الغرب كأفراد ومجتمع من لباسه؟ وهل يستحق الأمر كل هذا العناء بالاستناد إلى مفردة كاللباس لننتقل من فهمنا لها لمعرفة فكو المجتمع الغربي؟

أولاً: العلاقة بين تشكّل الزي ومفهوم الثقافة

قبل الخوض في فهم العلاقة، من الأولى معرفة الثقافة لا في مفهومها النظري بل في مغزاها الوظيفي.

ومفهوم الثقافة يتعدد بتعدد وجهات النظر والقاعدة الفكرية لمن يعطي المفهوم، ولكي لا ندخل في متاهات التركيز اللغوي لتعريف المصطلح، نرى أن الثقافة هي الرؤية العامة الشاملة التي ينظر المجتمع من خلالها إلى العالم، ونقصد بالرؤية العامة الشاملة هي انطباعات المجتمع إزاء الكثير من مفردات الحياة، كيف ينظر إليها وكيف يتعامل معها، وتترجم مثل تلك النظرة المعرفية كواقع ملموس على أكثر من صعيد، كطريقة البناء وشكل الطرق وأماكن العبادة، والأزياء وغيرها.

ويعتبر اللباس أحد صور الثقافة الواضحة التي يعكسها سلوك الأفراد، والتباين في الزي يعتمد على طبيعة فهم الإنسان للكون ونظراته إلى ذاته.

وبالنظر إلى سلوكيات المجتمع الغربي تجاه اللباس نرى أنها تستند إلى فكر يتبعه منذ ظهور فلاسفة العلمانية كـ "غوته" و"أوجست كونت"، وتبلور مفهوم "مذهب النفعية" و"الحرية المطلقة" فاختيار اللباس في شكله ونوعه يخضع لرؤية معينة، إلى ثقافة المجتمع والذوق الشخصي، وصمت المجتمع الغربي عن اللباس في شكله وحجمه، لا يعني عدم وجود معيار يدفع الإنسان الغربي لارتداء لباس معين دون آخر^(١).

"في أقل من خمسين عاماً انتقل الإنسان الغربي وبحدة من التحيز للملابس إلى التحيز ضدها، فبعد أن وسم المستعمرون البيض عري النساء الأفريقيات بأنه قمة في التخلف والبدائية، أصبحت ترتدي نساؤهم الآن الحد الأدنى من الملابس"^(٢).
إذا كان المجتمع الغربي يتمتع في زيّه بشيء ملحوظ من "الاحتشام".

سؤال؟

لماذا يظهر الإنسان الغربي بزي قصير وضيّق — خاصة النساء — بحيث يقترب من مفهوم التعريّ الممهّد لأطروحات الرجوع إلى الطبيعة من خلال خلع الملابس والتحرّك بحرية الإنسان المنفتح الذي لا يخجل من جسمه، فالملابس من صنع الإنسان، والأصل في الإنسان بوجوده الأرضي كونه عاري الجسد، بدون إضافات "تفاقية"، وهذا ما يدعو إليه مذهب "الطبيعيين الراجعين إلى الطبيعة الصافية" أو "مذهب العري".

نعتقد بأن الاعتماد على الإجابة المتوقعة، التطور العلمي والتكنولوجي الغربي ومقتضيات العصر، يكمن فيها الكثير من الضعف.

أولاً: خياطة الألبسة الضيقة ليست صعبة، ولا تحتاج إلى تفنن في الفكر وإجهاد في الاستنتاج لتكون مندرجة تحت مسمى التطور لو قورنت بما كان سابقاً من ألبسة طويلة وفضفاضة.

ثانياً: قدرة الشرقيين على خياطة الألبسة الضيقة، وهو في صالحهم اقتصادياً، توفيراً للجهد والمال، وقدرة الغربيين على خياطة الألبسة الطويلة، وكلّ اختار نوعاً من اللباس، ما يعكس تصوره ورؤاه.

ثالثاً: القول بأن هذه الملابس "عملية" أكثر، هو قول ضعيف، فالأعمال الشاقة والمتعبة كانت موجودة أكثر في السنين السابقة، أما الآن فنوعية الأعمال – خاصة للنساء – أصبحت أكثر راحة وتبسيطاً.

إذاً ما هو السبب؟

إنه يكمن في اختلاف الرؤية تجاه العالم عند كل من أهل الشرق والغرب وانعكاسات تلك الرؤية على جميع مفردات الحياة، ومن هنا ندخل في النقطة الثانية.

ثانياً: طبيعة الربط بين العزي الغربي والثقافة

ما هي العلاقة بين اللباس أو الزي القصير الضيق الغربي وبين الرؤية الغربية للعالم؟ نعتقد بأن الإجابة قد تحققت ولو ضمناً فيما سبق، وللتوضيح نشير إلى أن تلك العلاقة تركز على إدراك معنى الإنسان ومفهومه في تلك الحضارة!

معنى الإنسان في الثقافة الغربية:

فمن هو الإنسان في الحضارة الغربية الجديدة؟

"السعي من أجل المتعة والهرب من الألم"، بهذه العبارة "الكليشة" حدد مبدأ الحياة الأساس اثنتان من كبار فلاسفة الفكر المادي، هما "أبيقور" في الماضي، و"هولباخ" في العصر الحديث^(٣). ولا ينكر وجود فكر حر آخر في الواقع الغربي، يتمثل في تأصيل مبادئ الحس الإنساني والاعتباس الروحاني، يقول كارل ياسبرز: "عندما يكون الإنسان واعياً بحريته وعياً حقيقياً، فإنه في الوقت نفسه يصبح مقتنعاً بوجود الله، فانه الحرية لا ينفصلان، فإذا كان الوعي بالحرية ينطوي على وعي بالله، فيتبع ذلك أنه يوجد علاقة بين إنكار الحرية وإنكار الله"^(٤).

ومع ذلك نلاحظ أن الصبغة العامة للمفاهيم الغربية تتمحور عبر مبدأ جذب اللذة ودفع الألم ورفع كل ما يعكر اللذة اللامحدودة في نظر المجتمع الغربي.

"حينما لا يوجد الله يجوز عمل كل شيء"، ديستوفسكي،^(٥) حذف الله من الحياة واندثار المعنوية سبب الانفلات والتفكك النفسي عند الإنسان الغربي الذي يتحرك وللأسف نحو تفتيت الذات من خلال تدمير الخارج عبر سلوكه، ولا أدل على مثل هذا التصور من

كلام "دستوفسكي"، "ليس لي قدرة على خلق نفسي، ولكن لي القدرة على تدميرها". وهكذا تتمحور السلوكيات في المجتمعات الغربية على أساس مبدئي جذب اللذة ودفع الألم.

الحضارة عليها أن ترفع شعاراً "أطلق رغبات جديدة دائماً وأبداً"، في صحيفة "نيويورك تايمز"^(٦)، ظهرت مقالة تصف هذا الشعار بأنه الوصية الأولى للعصر الحديث، لذا من الضرورة بمكان معرفة الصيغة الأخلاقية المحركة للسلوك الإنساني عند هذه الثقافة أو تلك، لننظر من خلال مدلولاتها المتنوعة إلى مفهوم الإنسان في تلك الثقافة.

تساءل "ماندفيل" الإنجليزي، "ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟" وأجاب ببساطة: "لا شيء، بل لعلها تكون ضارة"، عند "ماندفيل" جميع الوسائل التي يقال عنها عادة إنها شرور أخلاقية ومادية في هذا العالم هي القوى الأساسية المحركة التي تجعل منا كائنات اجتماعية". وتحت هذا المفهوم يتحرك النشاط المعرفي بمبدأ الثنائية – جذب اللذة ودفع الألم – التي تتهاوى عنده جميع القيم والأخلاق الإنسانية ويرتفع صوت أحد المفكرين الغربيين، الذي تردد صدى معناه في واقع المجتمعات الغربية، "تخلص من الضمير ومن الشفقة والرحمة، تلك المشاعر التي تطغى على حياة الإنسان الباطنية، إقهر الضعفاء، واصعد فوق جثثهم"^(٧).

بناء على مثل هذه التصورات، وترجمتها في واقع المجتمع الغربي، فقيمة كل شيء على أساس اللذة، بسبب غياب الإيمان بوجود حياة أخرى، فيسخر هذا الإنسان كل ما حوله ليحقق اللذة، وجسم الإنسان يعتبر من أحد الأشياء التي بإمكانها أن تمنحه اللذة.

"ألفا شخص عراة من أجل صورة" يمثل هذا العنوان تطالعنا إحدى الصحف العربية "الأيام البحرينية" أن مصوراً أميركياً قام بتصوير أكثر من ألفي شخص وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم في وسط مونتريال بكندا ليلتقط لهم صورة "بتصريح" من السلطات، ليعرض مثل تلك الصور في متحف الفن المعاصر بمونتريال، وراقبت الشرطة جلسة التصوير التي استمرت ٥٠ دقيقة حيث شكلت حلقة دائرية حول المشتركين لإبعاد الفضوليين من المارة. وقال "تونيك" إنه واجه بعض المشاكل بشأن صورة حديثة التقطها لعراة في "نيويورك" حيث وصفها عمدة المدينة بأنها "غير مهذبة"، ويقول "تونيك": "أوظف الجسد كشكل، يستخدم الجسد كمادة فنية، وليست كسلعة جنسية"، وهكذا تتحرك صور متعددة لمفهوم الإنسان بجسده في المنظور الغربي، فمرة يتحول إلى حقل تجارب يتعد فيها عن "الأخلاقيات"، ومرة يتحول إلى مصدر "إثارة جنسية" وأخرى ليست أخيرة يتحول إلى "تحفة فنية" مجردة عن كل إنسانية، فنتيجة مثل تلك التصورات تحصيل اللذة بجميع الطرق مهما كانت، سواء تحقق مثل ذلك الأمر بالجنس المبتعد عن التقنين أو بالعنف المتأصل في الذات لدى المجتمعات الغربية.

موقع المرأة في الثقافة الغربية

بناء على ما سبق، أين موقع المرأة من مثل هذه الثقافة؟! نستطيع الإجابة من خلال مؤشرات ظاهرة في الثقافة الغربية، تضع المرأة كعامل إثارة دائم، وهذا الوضع ناشئ من مجموع الخطابات الموجهة للمجتمع الغربي، من خطاب الإعلام إلى خطاب السوق، لذا فادعأونا بأن المرأة في الغرب أصبحت عملة صعبة في تداول الإثارة لا ينطلق من فراغ، بل وأصبحت رمزية المرأة المثيرة للجنس لها حيز في واقع الحياة الغربية.

ترى كيف سيكون اللباس في ثقافة تعتبر المرأة موضوعاً جنسياً حياً؟! يقول أحد الكتاب الغربيين "مايك ماثيوس" في مقال له بعنوان "الأزياء المثيرة: ماذا يفكر الرجال؟": "طريقة لبس المرأة لثيابها تعكس تصورها عن نفسها، كما يعطي إذناً للآخرين، الرجال بالتصور عنها". ويخاطب المرأة قائلاً: "إذا عرضت نفسك للآخرين بصورة مثيرة من خلال لباسك، فطبيعي أن الكثير من الرجال يريدون جسدك للمتعة بغض النظر عن كونك امرأة لك شخصيتك وفردانيتك في التفكير". ويقول في مقطع آخر من مقاله: "الرجال مخطئون إن فكروا بشهوانية إزاء المرأة التي تلبس ثياباً فاضحة، لكن الرجل المهذب يريد أن يبتعد عن مثل هذا التفكير، ونأمل من المرأة أن تساعدنا على ذلك بعفتها ولبسها الثياب المحتشمة".

ويعقب "مايك ماثيوس" على انطباعات المرأة، تلك المتكونة من خلال مجلات الأزياء والموضات بالقول: "يجب أن لا تتخدع المرأة بما هو معروض في المجلات عن الأزياء والموضة التي تجعل من كل شخص باحثاً عن الجنس، وأن عليك أن تلبسي ثياباً مغرية لتحصلي على الرجل الجيد، ليس صحيحاً، هم وحدهم الذين يريدون أن يحصلوا على متعتهم الجنسية، يشجعون النساء على ارتداء مثل تلك الملابس، وليس عليك أن تظهر جسمك لتحصلي على الرجل الجيد"^(٨).

ويحوي مثل هذا الكلام نوعاً من التباين مع ما ذكره "فلوجل" من أن: "الملابس ترتدى لإرضاء غريزة جذب الانتباه أو استعراض الجسم، وتهدف الملابس إلى تغطية الجسم وتحقيق الحشمة، فهي في الوقت نفسه تعمل على إبراز الجمال واجتذاب الاهتمام للأجزاء المختلفة أو تجسيم الأجزاء المختلفة من الجسم"، وهذا الرأي يؤيد نظرية "وسترماك" التي تفسر سبب ارتداء الملابس والتي كتب فيها: "أنه في معظم الأحوال تكون تغطية الجسم لها جاذبية خاصة، وعلل ذلك بأن ارتداء الملابس استخدم في البداية لشد الانتباه"^(٩).

وهذا أصل ما ذهب إليه المؤلف المعروف لقصة الحضارة "ويل ديورانت" حين قال: "في معظم الحالات ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ما تتطلبه النساء في العصور

التي تلت، وهو أنه لا تكون الغاية تغطية الجسد بل أن تزيد من فتنة أجسامهن أو توحى بها، إن كل شيء في تغير إلا المرأة والرجل^(١٠). عندما تتجذر مثل هذه المفاهيم، ويتحول الجسد إلى محل لإشباع اللذة كمرکز أصلي في التمتع، فليس من الغريب أن تتمحور آراء أقطاب الثقافة الغربية حول تلك المفاهيم، فيقول "مارك توبل" كاتب "رسائل من الأرض": "إن ادعاء الحشمة ليس له أصل ولا يمكن أن يكون كذلك، لأنه يعارض الطبيعة لذا فهو أمر مختلق وسبب لظهور النزوات عند الأفراد"، في المقابل نرى تعاليم الديانة المسيحية من خلال الإنجيل تبجل الفضيلة والاحتشام، "أريد من المرأة أن تلبس ثياباً محتشمة مع العفة، وليست ذات شعر مجدّل مع الذهب واللؤلؤ والثياب الغالية، بل أن تجهز نفسها بإعلان ولائها وإيمانها لعبادة الرب"^(١١).

على الرغم من كل ذلك، فإن ما يتحرك في الواقع هو فكر أولئك الذين يحركون الجسد كقيمة "أولية".

اللباس النسوي في الثقافة الغربية

أولاً: يتحول اللباس إلى مظهر للجسد إن لم يكن صورة شفافة لمعالم الجسد ليتكون عند الفرد طبقة جلدية أخرى من خلال هذا النوع من اللباس، وكما يقول الدكتور عادل حداد في هذا الصدد: "يتحول اللباس إلى جلد ثان للمرأة بدلاً من كونه بيتاً للجسم"^(١٢).

ثانياً: تكون قيمة الملابس فيما تطرحه من إبراز أكبر قدر ممكن من الجسم، أو التفنن في إظهار أعرب حركة لباسية، فبين (الكشف للباسي) و(لباس الجنون) تتحرك قيمتان يعتبرهما الغرب فناً وموضة (Fashionable).

وتأخذ بعض التوجهات اللباسية عنواناً اجتماعياً مترامياً ناشئاً عن تاريخ مرّ به المجتمع الغربي، ومن تلك العناوين المساواة بين الجنسين، وبغض النظر عن حيثيات المسألة وتبعاتها الإيجابية أو السلبية في المجتمع الغربي، إلا أن تحركها على مستوى مفرط في المفهوم أدى إلى تداخل بيّن، تظهر آثاره على اللباس، بالرغم من نتائجها السلبية على المرأة كما يقول رئيس أساقفة "جنوى" الإيطالية، الكاردينال سيرى: "إن ارتداء المرأة لباس الرجل يؤثر على المرأة نفسها، بتغيير سيكولوجيتها الأنثوية، يفضي مثل هذا اللباس إلى تشويه العلاقة بين الجنسين — ربما من حيث تداخل الخاصية اللباسية لكل جنس —. وثالثاً: إن ارتداء المرأة لباس الرجل يؤثر في طبيعتها كأم لأولادها بإيذاء وقارها في أعين أطفالها".

إن تضخم الاستغراق في المعنى الجسدي للمرأة أو للرجل عند الغرب، أوجد لديهم عقدة الجسد، وتتمظهر معالم مثل هذه العقدة في نسبة جرائم الاغتصاب تارة، والتفنن في إظهار الجسد سواء للرجل أو للمرأة تارة أخرى، وإن كان للأخيرة صورة أوضح وأعمق في منافذها الفنية من سينما ومجلات وكتب، كأنه محور رئيسي للاهتمام تارة أخرى.

وإحدى الصور تطالعنا بها الشرطة البريطانية التي أصدرت كتيباً تحت عنوان: "السلامة المرأة الشخصية"، يتضمن نصائح لتجنب الاغتصاب والنصح بعدم لبس ثياب فضحة ومغرية والالتزام بالاحتشام!!
ويُشهد للشرطة البريطانية تفهماً لطبيعة اللباس الإسلامي بالنسبة إلى النساء المسلمات، ومراعاتها للترامهن في حيز اللباس، فقد أدخل الزي الرسمي للشرطة النسائية وشاحاً تقليدياً مخصصاً للمسلمات للدخول في الشرطة اللندنية بالعاصمة "ميتروبوليتان بوليس".

ثالثاً: الخطاب الاقتصادي وحركة العري

لماذا قلنا العري وليس الزي؟!!

تداخل معنيي العري والزي في التصور الغربي أوجد حالة من الثنائية الموحدة لكلا المصطلحين، فهل بقدر ما نبرزه من أجسامنا يعتبر عرياً، وبقدر ما نغطيه يعتبر زياً؟! لذا فقولنا العري لا يبتعد كثيراً عن الزي برمزيته الغربية المعلنة، وإن كان هناك الكثير من فئات المجتمع الغربي المحتشم لباساً.

تحول المرأة من مصدر إثارة بالاعتماد على الجنس كقوة طبيعية في الإنسان إلى وسيلة لتحريك السوق وازدهار الاقتصاد الرأسمالي في هذا الجانب، كوّن فكرة الوجوبية بمعنى أنه يجب على المرأة أن تستهلك وتستهلك ودلالة الوجوبية تتمظهر في تحديد الزي شكلاً وحجماً^(١٣).

صرّح أحد منتجي قنوات التلفزيونية الأولى الفرنسية (Telerama): "كلما خفضنا المستوى ازداد الحضور، الأمر هكذا، هل ينبغي أن نتصنع الذكاء ضد المشاهدين، هؤلاء ليس عليهم أن يفكروا، إذاً فلنكف عن إعطاء المواعظ"^(١٤). مثل هذا التفكير تكوّن بناءً على مفهوم "الإنسان الجمهور" وهو موضوع أي ثقافة، ومعناه أن يتحول الجمهور إلى وحدات مجهولة الهوية، لا وجه لها، فيملك الإنسان روحاً، أما الجمهور فلا شيء لديه سوى حاجاته التي تأخذ الثقافة الجماهيرية على عاتقها إشباعها^(١٥)، وبذا كان يقول سيد التلاعب بالعقول "أدولف هتلر": "لكي أحصل على الموافقة أمام جمهور المستمعين أتوجه إلى أغباهم، وإلى أسفل ما فيه الغدد الدمعية، والجنسية.. وأربح دائماً، أما الأقلية الناقدة فأنا أتعهد بهم بطريقة أخرى"^(١٦).

وبينما يأخذ الخطاب الاقتصادي نصيب الأسد في تأصيل معنى العري في المجتمعات الغربية، عبر المجالات الإباحية والمواقع على الإنترنت لتشكل دخلاً مالياً كبيراً يصب في ميزانيات تلك الدول المتلاعبة بعقول أفراد مجتمعاتها والمجتمعات الأخرى أيضاً.

هناك الكثير من الأصوات الشريفة في كل المجتمعات التي تنادي بالفضيلة، حتى في المجتمعات الغربية نفسها، فماذا عن المجتمعات الشرقية، فهل مثل تلك الروى أخذت نصيبها في التأثير في ثقافتها، سنشتف ذلك خلال مقال خاص في العدد القادم إن شاء الله.

الهوامش

١. ثقافة العري أم عري الثقافة، د. عادل حداد.
٢. فقه التحيز، أ. عبد الوهاب المسيري.
٣. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش.
٤. مدخل إلى الفلسفة، كارل ياسبرز.
٥. نحو حرب دينية، روجيه غارودي.
٦. الإسلام بين الشرق والغرب. علي عزت بيغوفيتش.
٧. فريدريك نيشته، هكذا تكلم زرادشت.
٨. اقتبس المقال من أحد مواقع الإنترنت.
٩. دراسات في سيكولوجية الملابس، د. علية عابدين، دار الفكر العربي.
١٠. قصة الحضارة، ويل ديورانت، الجزء الأول.
١١. تيموثاوس الأول: ٩:١٠ "الإنجيل".
١٢. ثقافة العري أم عري الثقافة، د. حداد عادل.
١٣. المصدر نفسه.
١٤. نحو حرب دينية، روجيه غارودي.
١٥. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش..
١٦. نحو حرب دينية، روجيه غارودي.